السياق والأنساق الثقافية المُضْمَرة

قراءة في حديث عيسى بن هشام للمويلحي

أ.د/ محمود النوبي أحمد.
عميد كلية الألسن
جامعة الأقصر

مقدمة:

على الرغم من انعدام الطلب الاجتماعي للدراسات النقدية، في ظل ملاحقة التطور الرقمي والتكنولوجي في العصر الحديث، إلا أن هناك جهوداً متواصلة للرقي بالنقد الأدبي وتطويره، ولكنها جهود لا تخرج عن حدود التطوير الذاتي لمجموعة من الباحثين والأكاديميين.

وفي معالجة النقد الثقافي الجديد – على أنه باب من أبواب النقد الأدبي وليس بديلاً عنه – يُهَيّأ مدخل واسع للولوج في حياة الناس وعالمهم الداخلي، والبحث في المسكوت عنه داخل النص؛ ليجمع النقد الأدبي بين عنايته بحسن البيان، ودوره الاجتماعي، فالنقد الثقافي نظرية في نقد المُستَهلَك الثقافي، ينظر إلى النص على أنه حالة ثقافية، وينظر إلى مُستهلِكي النصوص على أنهم ذوات مشبعة بثقافة ما أو تم برمجتهم بها، فلا تطربهم إلا النصوص التي تتوافق مع تلك المواصفات النسقية التي تشبعوا بها[1].

وفي النص الأدبي قيم ثقافية وتاريخية واجتماعية تُحرك مُستهلِكيها، وبالنظر إلى هذه القيم تتفتح أبواب جديدة للبحث، عن طريق استعادة تلك القيم من النصوص، والكشف عنها، والاستماع من خلالها إلى بلاغة المقموعين، وفهم أشكال الهيمنة، ثم محاولة التوجيه والتغيير، أو على أقل تقدير يُكشف عن تلك القيم المُهيمنة؛ فتُفتح أبواب جديدة لعلمي النفس والاجتماع لمحاولة تعديلها وإعادة توجيهها.

وفي قراءتي لكتاب (حديث عيسى بن هشام للمويلحي) رأيت صورة ثقافية نسقية وجَّهت أبناء عصره، وشكَّلت علاقاتهم، لازالت أكثرها مغروسة في نفوسنا حتى اليوم؛ إذ لم يتم الكشف عنها ولم نحاول إعادة توجيهها.

فمما يرسمه النسق في حديث عيسى بن هشام، العلاقة بين العنصرين العربي والتركي، ظهرت ملامح تلك العلاقة في شخص الباشا: الذي يتبنى الشخصية التركية الأبية الطامحة. والفلاح المصري: الشخصية التي تتخفّى خلف خطاب غائب، يرفض الهوان، ويطمح إلى الحرية والرقي.

والقطيعة التي فُرضت بين العرب والأتراك– منذ حديث عيسى بن هشام-هي ثقافية بالدرجة الأولى، وهل ينكر أحد الرصيد الثقافي المتراكم لدى العربي، فالتركي في المُضمر النسقي عند أكثر المصريين مثلا-حتى اليوم-لا يخرج كثيراً عن الصورة العثمانية القديمة؟[2] ولما بدأ التحول التركي الجديد نحو البلاد العربية، وصفه بعضهم بـ(العثمانية الجديدة)، تأكيداً لسيطرة النسق.

فلا بد من علاج تلك التصدعات الثقافية؛ لكسر الحواجز النفسية المقنعة، وإزالة الجدران الوهمية بين الأتراك والعرب، بالكشف عنها وإعادة توجيهها، وقد تكون إعادة القراءة للتاريخ والأدب باباً من أبواب التوافق وترميم الجسور التي دمرها الزمن.

وقد أدت مقامات المويلحي دورها في هذا الحوار الثقافي بين القديم والحديث، وبين العربي والتركي، ولازالت مرشحة لأن تؤدي دوراً أكبر من خلال إعادة القراءة، أو قراءة غيرها من أدب تلك المرحلة؛ ذلك لأن المنتج الأدبي والثقافي بصفة عامة لا تقل قيمته بالتقادم.

* المويلحي:

---

1 انظر: النقد الثقافي- قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان/ والمملكة المغربية – الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، سنة 2005م، ص81 – 168.

2 ربما استطاعت الدراما التركية التي غزت الفضائيات العربية مؤخراً إجراء بعض التعديلات في الذهن العربي.

محمد بن إبراهيم بن عبد الخالق بن إبراهيم المويلحي، نسبته إلى مويلح (من ثغور الحجاز)، مولده في القاهرة (سنة 1275 هـ- 1858م)، تعلم في الأزهر، ثم في مدرسة الأنجال (أنجال الخديوي إسماعيل)، وتوفي ليلة عيد الفطر (سنة 1348هـ- 1930م)[1].

نشأ المويلحي في أحضان السلطة والمال، فلِجده السيد أحمد المويلحي مشاركة تاريخية في تجهيز جيش محمد علي للقضاء على الحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية، والأسرة العلوية لم تنس لعائلته ذلك الفضل، فعندما مات أحمد المويلحي أمر محمد علي بدفنه في مسجد الإمام تكريماً له، ثم أمر بتعيين ابنه إبراهيم عضواً في مجلس فصل الدعاوى بين التجار.

وفي عصر الخديوي إسماعيل نال إبراهيم المويلحي، وأخوه عبد السلام أعلى الوظائف والرتب، وتقلدا النياشين، وحظيا بالمساعدات المالية والعينية لإصلاح تجارة الحرير، التي عُرفت بها العائلة.

ولما أُخرج الخديوي إسماعيل من مصر إلى أوربا لم يثق في أحد ليرافقه إلا إبراهيم المويلحي(والد المؤلف)[2].

أما المؤلف (محمد المويلحي) فقد كان من رجال عصره، فولي عدداً من المناصب الإدارية، وكان ناشطاً سياسياً منذ حداثة سنه، فشارك في الثورة العرابية، بتوزيع المنشورات، المؤيدة للثورة، المُحرّضة على الاحتلال؛ فحُكم عليه بالإعدام، ثم خُفف الحكم إلى الطرد من الوظيفة والنفي خارج البلاد، عندها انتقل إلى إيطاليا[3]، حيث إقامة أبيه مع الخديوي إسماعيل، ثم انتقل إلى تركيا، فأقام فيها فترة من حياته، ويبدو أنه تعود أهلها، ورضي بالعيش فيها؛ فزارها مرتين أو أكثر بعد هذه المرة، ليبقى فيها فترات أخرى من حياته، وفي واحدة من هذه الأسفار (سنة 1892م) كان سفره وسيطاً "ليقدم (سلطان جوهر) إلى السلطان العثماني، بواسطة والده، وأنعم عليه السلطان في هذه السفرة بالنيشان الثاني المجيد"[4].

حديث عيسى بن هشام:

بناء السياق[5]:

حديث عيسى بن هشام تصوير رائع للمجتمع المصري، في فترة من الزمن[6]، وعرض شائق للحياة المصرية، وما فيها من عادات وأخلاق وأنظمة، يناقش أدق مشكلات المجتمع في مختلف ظواهرها.

وهو فصول نشرها المويلحي في مجلة مصباح الشرق، سنة(1898م : 1903م) تحت عنوان (فترة من الزمن)، ثم جمعها وأعاد نشرها في كتاب واحد سنة 1907م.

انقسم الكتاب إلى رحلتين: الرحلة الأولى: اتجه بها إلى داخل عوالم المجتمع المصري، تعرض لكافة مظاهر الحياة المصرية، وناقش أدق مشكلات المجتمع، في مختلف ظواهرها. استمد

---

[1] انظر: الأعلام- قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الزركلي - خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي(ت 1396هـ)، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، الطبعة الخامسة عشرة، سنة 2002 م، ج5 ، ص305 - 306.

وعصر إسماعيل، عبد الرحمن الرافعي، دار المعارف، مصر، الطبعة الرابعة، سنة 1987م، ج1، ص260 -261.

[2] انظر: المويلحي الصغير- حياته وأدبه، عبد اللاه عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1985م، ص24: 26.

[3] اختلط المؤلف بالشعب الإيطالي في هذه الرحلة، فتعلم الإيطالية، واطلع على بعض الآداب الغربية. انظر: نفسه، ص39.

[4] نفسه، ص46.

[5] المقصود بالسياق في هذه الدراسة: الطريقة التي يعبر بها المبدع عن محور التجربة. انظر: السياق الأدبي، دراسة نقدية تطبيقية، محمود محمد عيسى، طبعة خاصة، سنة 2004م، ص6 .

[6] نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين.

مادته من الواقع، "فعندما اختار ... حوادثه لم يخترها من عظائم الأمور، ولا من شواذ الأحداث، ولا من غرائب الطبيعة، بل كلها أحداث صغيرة مألوفة يعرفها الناس جميعاً، وذلك مما أضفى على الرواية ثوب الحقيقة، وجعلها صورة ممتعة للحياة الإنسانية"[1].

أما الرحلة الثانية: فكانت إلى الخارج – خارج عوالم المجتمع المصري – ذهب فيها عيسى بن هشام مع رفيقه (الباشا) إلى فرنسا، رمز الحضارة الأوربية الحديثة في عصر المؤلف. أراد التعرُّف عليها، والتعريف بها، ويبدو أن الرحلة الثانية كانت رحلة في المكان، فكانت أقرب إلى الوصف المشهدي، أبعد من السرد الحكائي.

خُلاصة أحداث المقامة/الرواية أن عيسى بن هشام كان ذات ليلة يطوف بالمقابر للاتعاظ والاعتبار، إذْ بُعث له دفين يخاطبه، فعلم أنه (أحمد باشا المنكلي)[2] ناظر الجهادية المصرية في عصر محمد علي، الذي جاء ومعه شخصيته العسكرية الحاكمة التي تعودت على إعطاء الأمر، و يحمل تقاليد وعادات تكوّن شخصيته التركية صاحبة الأنفة والكبرياء في عصره، فلازمه وصحبه وجاء معه إلى القاهرة، فاصطدم بالواقع نتيجة جهله به، وتتابعت الأحداث.

مضى المويلحي مع بطليه (عيسى بن هشام، والباشا) في رحلة في الزمان والمكان، يَرقُب ما طرأ على الواقع من تغير أصاب صورة الإنسان على نحو لم يألفه الباشا، ولم يرضَه عيسى بن هشام، في محاولة للبحث عن الشخصية المصرية، وما طرأ عليها من تغيير نتيجة للواقع، ومن خلال مشاهدات بطليه وملاحظاتهما جعل ديدنه المقارنة بين الحالة الحاضرة والحالة السابقة حتى يتبين للقارئ الفارق بينهما.

- ونتيجة لأزمة الاحتلال، والتغيرات السريعة للمجتمع-بالإيجاب أو بالسلب- فقد واجهت المثقف أزمة جعلته في حيرة، فكان هناك تساؤل محير حول الذات وفقاً لماضيها، ولما تبتغيه في المستقبل[3].

ولم يختلف موقف العامة عن موقف المثقف، فجميعهم "منقسمون إلى فريقين متباينين: فريق يرى في التراث كل وسائل التطور، ولا يرى ضرورة الأخذ بأساليب الحياة المعاصرة، وفريق يرى الجمع بين الأصالة والمعاصرة، ويرى ضرورة الأخذ ببعض أجزاء من التراث، وبعض أجزاء من المعاصرة"[4].

ولكل إنسان مهما يكن حظه من العلم والثقافة تحيزات اكتسبها من مجتمعه الصغير في أسرته الصغيرة، وأسرته الممتدة، ثم من مجتمعه الكبير في الشارع والمدرسة وأماكن اكتساب الثقافة، وهناك تحيزات يشترك فيها المثقف وغير المثقف. والمويلحي يدعو بطريق غير مباشر إلى إمكانية الجمع بين متطلبات الحداثة وعراقة القدامة؛ لتقريب الفجوة بينهما.

فكان حديث عيسى بن هشام حلقة الوصل بين القديم بكل ما فيه، والحديث بكل متطلباته، ففي الشكل العام للحديث جمع المويلحي بين أسلوب المقامة العربية القديمة، وأسلوب القصة الغربية

---

[1] المويلحي الصغير، ص244.

[2] أحمد باشا المنيكلي: من أعظم قواد الجيش المصري، تولى نظارة الجهادية/وزارة الحربية سنة 1862م، واشترك في حرب سورية مع إبراهيم باشا الكبير، وأُسندت إليه قيادة الحملة البرية المصرية التي أُرسلت في عهد سعيد باشا لمساعدة تركيا في الحرب الروسية المشهورة بحرب القرم (سنة 1853 – 1855م). انظر: عصر محمد علي، عبد الرحمن الرافعي، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة، سنة 1989م، ص273 – 430 وانظر: عصر إسماعيل، ج1، ص227.

[3] انظر: الأدب والمجتمع المعاصر في مصر، سمير سعيد حجازي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ص11.

[4] نقد المجتمع في حديث عيسى بن هشام، أحمد إبراهيم الهواري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، سنة 1993م، ص11.

الحديثة، وجمع بين بطلين: أحدهما: عيسى بن هشام[1]، شخصية تراثية ابتدعها بديع الزمان الهمذاني (المتوفى سنة 398هـ)، والثاني: أحمد باشا المنكلي، ناظر الجهادية في عصر محمد علي.
والقارئ للكتاب يلمس مدى تمزق الشخصية الروائية وحيرتها في الجمع بين الماضي، والحاضر، والجمع بين الشرقي العربي، والغربي الأوربي.
وقد آثر المؤلف أن يكون معتدلاً بين التراثي والمعاصر، فصاغ عمله على نسق المقامة، ولكنه ميزه بمزيد من الحبكة القصصية؛ فكان عمله حلقة وصل بين طرائق الأدب القديم والأشكال الفنية الجديدة، وكأنه يشير إلى أهمية الأصالة والتراث مع عدم إهمال كل ما هو جديد ونافع.
والمويلحي في عمله يعبر عن موقف طبقته البرجوازية الطامحة إلى الواقع القائم، ويعبر عن ثقافته ورحلاته الخارجية، يقول معاصره عباس محمود العقاد: "إن أمراً لا ريب فيه ... هو أن كتاب المويلحي لم يكن ليُكتب على هذا المثال لو لم يكن صاحبه من المطلعين على الأدب الأوربي والمستعدين للنقد والملاحظة على الأسلوب الجديد"[2].
وقد انتهج المويلحي التيار الواقعي في كتابته، فمع واقعية أكثر المواقف والأحداث، بالإضافة إلى واقعية الأشخاص، هناك واقعية الأماكن، فقد ورد في المقامة/الرواية عدة أسماء لأحياء وشوارع ومحال حقيقية بعضها مازال يحتفظ باسمه وبطابعه.
ولا يشك أحد في أن هذا الكتاب يُعد بداية طيبة للقصة المصرية وفتحاً جديداً للون جديد من الأدب في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين.

- وقد استعان المويلحي ببعض الخصائص الفنية؛ ليمنح الأفكار الجزئية أبعاداً معينة، فيتحقق النمو للفكرة العامة، منها:

- **تنوع الأسلوب**: فالتنويع بين السجع والكلام المرسل، هو نوع من الجمع بين التراثي /المقامة، والحديث/الرواية؛ ولذا كان أكثر ما ورد من أسجاع في الحديث، قد جاء على لسان عيسى بن هشام الشخصية التراثية للمقامة العربية.
وقد تنوع أسلوب المؤلف على حسب الحاجة، فأسلوبه في الوصف غير أسلوبه في حديث العقل والإقناع، ويختلف فيهما عن أسلوبه في الحوار، أو الحديث على ألسنة بقية الأشخاص، فهو يتنقل ما بين السجع والكلام المرسل، في قدرة فائقة على التناغم والانسجام.
فمما جاء على لسان عيسى بن هشام: "وأخذت طريقي، مع رفيقي، أنشد صاحباً أسترشده، في محامٍ شرعي أقصده، وبينما نحن نسير، ونسأل الله التيسير..."[3].
لكنه في موضع آخر يقول: "فقلت في نفسي: كيف أنادي البوليس، وأنا أحمد الله على سكوته وسكونه، وهو بمقربة منا، لا يكترث بنداء المستغيث"[4].
فقد كان السجع تعبيراً عن رؤية فنية، وكان التحرر منه حديثاً للعقل، ووسيلة للإقناع، كما أشار أحد الباحثين بقوله: "والمتأمل في لغة الكتاب يلمس وضوح نبرة السجع وإيقاعه متناغماً مع الدفقة الشعورية للفنان، وذلك عندما يصور رؤيته ويجسد شعوره تجاه (المثير الاجتماعي)، بينما يفلت من قيود السجع عندما يخاطب العقل فيعتمد حينئذٍ على عنصر الإقناع، ومن ثم يتحرر من السجع"[5].

---

[1] جعله المويلحي شخصية معاصرة تعبر عن عصره الحديث.
[2] نفسه، ص255 ، نقلاً عن (حديث عيسى بن هشام، للعقاد، البلاغ الأسبوعي، العدد66 ، 24 ديسمبر 1928م، ص12).
[3] حديث عيسى بن هشام، أو فترة من الزمن، محمد المويلحي(ت 1348هـ)، دارف المحدودة، لندن، الطبعة الخامسة، (د.ت)، ص81.
[4] نفسه، ص14.
[5] نقد المجتمع، ص145.

- **دلالة اللغة**: تعد اللغة من المكونات المهمة للثقافة، وقد حاول المويلحي الربط بين اللغة، والوضع الاجتماعي والفكري للشخصيات، فجاء أسلوبه متوافقاً مع مستوى الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها الشخصية.

ولم يقف المويلحي باللغة عند الحدود الخارجية للألفاظ، وإنما جعلها تصور الشخصية من الداخل؛ ليصبح مضمونه وجدانيّاً يرتبط بقضية إنسانية، فيعرض للعُقد النفسية الدفينة، والآلام والآمال، والمؤثرات التي تظهر انعكاساتها على تصرفات الأشخاص، من خلال اختلاف مستويات اللغة بين طبقات المجتمع المختلفة.

ففي نقاش عيسى بن هشام مع الباشا في أمر القانون الذي يحكم البلاد، يقول الباشا: "وهل عاد الفرنسيس فأدخلوكم تحت حكمهم وسلطانهم مرة أخرى؟"، فيجيبه عيسى بن هشام: "لا، وإنما نحن الذين أدخلنا أنفسنا في حكمهم، فاخترنا قانونهم ليقوم عندنا مقام شريعتنا"[1]، فالمؤلف يعبر عن رفضه للسيطرة الفكرية، والاحتلال الثقافي الذي لم ينته بانتهاء الاحتلال المادي.

وقد زاوج المؤلف بين التعبير اللغوي، وحاجات الطبقة التي ينتمي إليها المتحدث، مما يجعل لكل طبقة هويه لغوية تسمها، فلغة الباشا بعيدة عن لغة العامة، ففي الحديث عن الشهادة التي ينالها المُتعلِّم في عصر المؤلف، نرى تعليقاً عسكرياً على لسان الباشا، يشي بعدم المعرفة بهذا الأمر المُستحدَث، ويعبر عن فروسية ورفعة وصدق نية في الجهاد، يقول: "نعمتْ المنزلة عند الله منزلة الشهادة، وللشهيد في الجنة أعلى الدرجات"[2].

أما العمدة ففي المطعم يطلب فَحْلَ بصلٍ، والفاكهة برتقال وبلح، وفي غرفته بُرْمَة أرز بالحَمَام، وفي وصفه للحديقة يقول:"وهل كان جُل القصد ومنتهى الجهد أن نجلس هنا في وخامة الأشجار، ورطوبة الهواء، وعفونة الماء؟ وتاللهِ ما أجد فرقاً بين هذا المنظر، وبين منظر ذلك المستنقع الذي خلَّفتُه خلف بلدتنا..."[3].

وكلمة (السوابق) عندما ينطق بها العسكري في عصر المؤلف، وقد اختلفت دلالتها عما كانت عليه في عصر الباشا، قد تثير في نفس المُتلقي معاني كبيرة، لما تحمله من اختلاف في الدلالة، ربما قصده المؤلف لإثارة التعاطف مع شخصية الباشا.

فقد كان العسكري يجر الباشا ويقول له:"هَلُمّ إلى السوابق"، فيرد الباشا، وهو لا يفهم المعنى المقصود، ظاناً أنه يصف الخيل، فيقول:"سبحان العزيز القادر، أترى قد زال عني بُؤسي وانقشع نحسي ورجع إليّ عزي فجاءوني بموكبي وخيلي"[4].

فالمويلحي يتحسس نبض الطبقات الاجتماعية، وإيقاع حياتها، ويجتهد لتستوعب اللغة فكره أو يجعلها نشاطاً من نشاطات الفكرة العامة، أو إفرازاً لها، مع التركيز على السمات العامة للشخصية.

- **استدعاء بعض الرموز التراثية**:(عيسى بن هشام والباشا)؛ لإبراز التناقض الذي أصاب الحياة المعاصرة.

- **مزج الواقع بالخيال**: نجده في تصوير واقع الحياة المصرية في عصره، مع استخدامه الخيال الواسع في تأليف الأحداث، بل وإحياء الأموات.

- **توظيف المكان**: فقد حاول المويلحي توظيف بعض الأماكن[1] في حديثه؛ في محاولة لتعميق اللحظة، ساعده على ذلك واقعية الأماكن التي من خلالها حاول تأكيد واقعية الأحداث.

---

[1] حديث عيسى بن هشام، ص33.
[2] نفسه، ص22.
[3] نفسه، ص196.
[4] نفسه، ص21.

[1] من هذه الأماكن: حي الإسماعيلية – اللوكندة – الأهرامات – المحكمة – القهوة.

فعل النسق[1]:

حديث عيسى بن هشام كتاب جماهيري مشهور في عصره، طُبع حتى السنة التي مات فيها مؤلفه(سنة 1930م) أربع طبعات (1907م – 1917م – 1923م – 1927م)، هذا غير نشره منجماً في جريدة (مصباح الشرق)، ولم تتوقف طباعته بعد موت المؤلف، فقد طُبع مرات أخرى (1935م - 1959م - 1964م).

وقد أثنى على الكتاب كبار المثقفين في عصره، وحمدوا فعل وزارة المعارف عندما قررت الكتاب على طلاب المرحلة الثانوية سنة 1927م.

فمما قيل عن الكتاب: "إن حديث عيسى بن هشام كتاب حي؛ لأنه يمثل لنا الحياة في جيل من أجيال الأمة المصرية، ويسجل معلم ذلك الجيل وسماته، في عالم الأدب، وعالم الاجتماع، والكتاب مصري الموضوع، مصري التأليف، مصري الملكة، مصري الروح، لا يعدله في هذه الصفة أثر غيره من آثار العصر الحديث".

وفي نهاية المقال يقول:"وهو جدير أن يُعاد طبعه للمرة الرابعة، وأن يُعاد طبعه مرات بعد هذه الطبعة"[2].

وفي الكشف عن الفعل النسقي، ندرك أن الناس يطربون لما يتوافق مع مواصفاتهم النسقية، "فكلما رأينا منتوجاً ثقافياً أو نصاً يحظى بقبول جماهيري عريض وسريع؛ فنحن في لحظة من لحظات الفعل النسقي المُضمَر"[3]، إذ وقع الجمهور تحت تأثير النسق الذي يُحرك الذائقة ويحدد الخيارات[4].

"فتكون جماهيرية نص ما أو عمل ما دليلاً على توافق مبطن بين المغروس النسقي الذهني في دواخلنا، وبين النص، مما يدفعنا إلى الاستجابة السريعة إلى أي نص يضمر في داخله شيئاً خفياً يتوافق مع ما هو مخبوء فينا؛ ويحصل القبول السريع منا لهذا النص الحامل لذاك النسق"[5].

هي استجابة جمعية خارجة عن الشعور الفردي، قد تتعلق بمغروس تاريخي قومي، فقد تميزت نظرة المويلحي النقدية للمشكلات التي نجمت عن التغير الاجتماعي بالنظرة التاريخية، والمقصود بالنظرة التاريخية الماضي والتراث عامة، وهي بذور يحملها الحاضر في داخله، ويفرضها على معاصريه، فلا يجرؤ الأفراد على المساس بها صراحة.

وفي عصر المؤلف تحرَّج الناس من التصريح برفض العنصر التركي؛ فقبل سطوة السلطان وقهره، فالأمر متعلق بالخلافة الإسلامية(اللقب المُحمَّل بظلال دينية وتاريخية عميقة) وقد تهددها الاحتلال، ودبَّر لها، حتى تمكن من إسقاطها (سنة 1924م)، ظناً منهم بأن الإسلام في الخلافة، والخلافة في هذه الدولة التركية.

وقد تجمعت في حديث عيسى بن هشام كل المواصفات التي حددها الغذامي للنص حامل الأنساق فهو: بليغ – جماهيري – ذو تأثير فعَّال – يحتوي نسقين أحدهما نقيض الآخر.[6]

وسوف يكشف البحث عن هذه الأنساق في قراءة للباشا والفلاح في حديث عيسى بن هشام.

---

1 نص غير مُعلَن، يتخفى بين ثنايا النص الجمالي البلاغي، لا يدركه المبدع ولا الناقد إلا باستخدام أدوات خاصة، ويعبر دائماً على نقيض المضمر البلاغي. انظر: النقد الثقافي. ص79.

2 نقد المجتمع، ص259 ، نقلاً عن (حديث عيسى بن هشام للعقاد، البلاغ الأسبوعي، العدد66، 24 ديسمبر 1928م، ص12).

3 النقد الثقافي، ص79: 80.

4 انظر:نفسه، ص167.

5 نقد ثقافي أم نقد أدبي، عبد الله الغذامي، وعبد النبي اصطيف، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، سنة 2004م، ص40.

6 انظر: نفسه، ص 32 ، والنقد الثقافي، ص77: 78 .

الباشا التركي:

في سنة 1930م، صدرت الطبعة الأولى من كتاب عصر محمد علي، للرافعي[1]. والكتاب عبارة عن وصف للعصر، وإشادة برجاله، فمما جاء في مقدمة الكتاب قول الرافعي: "إن استقلال مصر كان ثمرة الحروب التي خاضت غمارها في عصر محمد علي، ... فلا جرم أن كان الجيل الذي عاش في عصر محمد علي هو أكثر الأجيال عملاً وتضحية في سبيل تكوين مصر المستقلة، فعلى أكتافه وبجهوده وضحاياه قام صرح الاستقلال عالي الذرى... فإذا قارنتُ بين جهود ذلك الجيل وتضحياته، وما بذلته الأجيال المتعاقبة من بعده إلى اليوم، حكمت من غير تردد أنه أكثر الأجيال بذلاً ومساهمة في أعباء الجهاد القومي، وأكثرها تضحية بالروح والنفس والمال في سبيل استقلال مصر وعمرانها، فهو جدير بأن تنحني الأجيال المصرية احتراماً لذكراه، وتقديراً لفضله..."[2].

وجاء فيها: "...لأن الجيل الذي حققه واستخلصه وبذل في سبيله ما بذل من جهود وتضحيات، قد دافع عنه وتركه للأجيال المتعاقبة سليماً من الأذى، لكنه بدلاً من أن تنهض بالدفاع عنه وتصل به إلى غايته من الاستقلال التام، أو تحتفظ به كما هو وتصونه بالمُهج والأرواح، قد تهاونت فيه، وقصَّرتْ في الذود عنه، حتى رُزِئت البلاد بالاحتلال البريطاني سنة 1882، فتصدع البناء الذي أقيم في عصر محمد علي"[3].

إذاً هو اعتراف بفضل الجيل السابق من رجال الجيش خاصة، واعتراف بالتحول الذي أصاب البلاد في فترة قصيرة، نتيجة لتقصير أبنائه؛ ووقوع البلاد في يد الاحتلال.

ويبدو أن اختيار الباشا في حديث عيسى بن هشام، كان مقصوداً؛ فهو من أعظم قواد الجيش المصري، ووزير الحربية، صاحب الشرف واليد العليا في كل مجد حققه الجيش، وهو أفضل شاهد على عصره، وأحق الناس بالمراجعة والنقد لما يدور في الفترة اللاحقة.

والمويلحي بدوره لم يرفض الباشا، ولا يُوجد ما يدعوه لرفضه، ولم يوقظه من موتته ليسخر منه، أو ليقلل من قدره، وهو رمز الدولة العلية (صاحبة الفضل على أسرته، وصاحبة التاريخ المجيد)، ولكنه بعثه من مرقده ليشاركه الموقف مما طرأ على البناء الاجتماعي المصري من تغير سريع، وربما أراده نموذجاً بشرياً سامياً قابلاً للاحتذاء سياسياً واجتماعياً.

والغريب أنه لم ينقضِ على موت الباشا أكثر من أربعين سنة، والباشا لا يكاد يتعرَّف على شيء مما يراه حوله، فلم ندرِ هل نتج ذلك عن التغيرات السريعة التي طرأت على المجتمع المصري نتيجة لتأثير الاحتلال، أم أن الباشا لم يتعود حياة الناس، وكان في عُزلته السلطوية، وانشغاله الحربي، فلم يرَ من الحياة ما يراه عامة المصريين؟!

إذاً صورة الباشا كما يرتضيها المؤلف، وكما رسمها في كتابه، هو الرجل العظيم، الوقور، الباحث عن المعرفة، الرافض لسفاسف الأمور، المتعجب من قبيح الأفعال.

وفي حديث عيسى بن هشام نرى الباشا مثالاً للعدل السلطوي، ظهر ذلك في أول لقاء بين الباشا والبطل(عيسى بن هشام) عندما تنازل البطل عن بعض ثيابه للباشا الخارج من القبر، قال الباشا: "للضرورة أحكام، وقد لبسنا أدنا من هذا الرداء في مصاحبتنا لأفندينا المرحوم إبراهيم باشا، على طريقة التنكر والتبديل في الليالي التي كان يقضيها في البلد؛ ليستطلع بنفسه أحوال الرعية"[4].

[1] كان عنوان الكتاب عندما ظهر لأول مرة (تاريخ الحركة القومية – الجزء الثالث – عصر محمد علي)، ثم جعله المؤلف كتاباً مستقلاً فيما بعد. انظر: مقدمة الطبعة الثانية من الكتاب.

[2] عصر محمد علي، ص12.

[3] نفسه، ص13.

[4] حديث عيسى بن هشام، ص9.

والباشا واعظ يقف بين كبراء العصر الماضي فيقول:"عليكم بالعدل والإحسان، وتقوى الله في عباده، وإفشاء البر والمعروف في خلقه، ولا تطيعوا النفس الأمارة بالسوء؛ فتركنوا إلى الاغترار بالأمل، وتطلبوا المغفرة بلا عمل..."[1].
فالباشا مختلف عن الشخصية المصرية العامة، مما يوحي بثنائية ضدية تبرز الباشا والفلاح / السيد والعبد، كادت تتمكن هذه الثنائية في بداية المقامة لما خرج الباشا من مدفنه وأخذ في الأمر والنهي، لولا تتابع الأحداث، ووقوعه في أكثر من مأزق؛ مما أشعره بالغربة والانكسار.
ولم نر المؤلف يستهين بالباشا ولا يقلل من شأنه في أي من مواقف المقامة، إلا ما جاء للضرورة التي من أجلها أنشأ روايته، وهي المقارنة بين الحالة الحاضرة والحالة السابقة.
فقد أبرز العمل لونين من ألوان الحياة متباينين: الأول في حياة الباشا عصر محمد علي، حيث الرفعة والجاه، وسيادة التعليم الأزهري، وبيوت الأمراء، ومجالس العلم، وسيادة الصفوة من القواد الأتراك.
أما اللون الثاني أو الحياة الثانية (بعد بعث الباشا) فهي حياة الصراع والزحام والتدني، فيها تشتد النزاعات والخصومات؛ فتزدحم أقسام الشرطة، والمحاكم بالمتخاصمين والمتقاضين.

* وأول ما يلاحظه المتأمل في حديث عيسى بن هشام، عمل المويلحي على التقريب بين الباشا، رمز السلطة العلوية، وبين العامة من الشعب المصري، فأخذه من عزلته، واندفع به في حياة الناس، حتى تعودها بعض الشيء، وحاول التكيف معها.
فالقارئ للكتاب يلمس أن شخصية الباشا بدأت متصلبة جامدة، لعدم تعودها التعامل مع العامة، فكان من الطبعي أن تصطدم مع الواقع المتجدد نتيجة جهلها به، وقد أحسن المؤلف إذ جعل اصطدامه الأول مع أقل طبقات المجتمع في نظره أو في عصره(المكاري ثم عسكري المراسلة).
وما كاد ينتهي من قضية المكاري، حتى أدخل نفسه في رحلة معقدة في البحث عن وقف له، فكانت صدمة أخرى.
ونتيجة لما رآه في قضية المكاري، وصدمة البحث عن الوقف، عمد الباشا إلى التعلم ومحاولة الاطلاع على أخلاق الناس.
وبالتأمل في المنحى التاريخي لشخصية الباشا-كما عرضها المويلحي- نلمس تغيراً مستمراً في سلوك الباشا نحو ما يُسمى بالتكيف الاجتماعي.
ومما يؤكد على تغير حال الباشا، ما نراه من تغير طرأ على أسلوبه في الحوار والحياة، فالفارق كبير بين نبرته الحوارية في أول الرحلة وفي آخرها، ففي أول لقاء بين الباشا وعيسى بن هشام، قال الباشا سائلاً: "ما اسمك أيها الرجل؟ وما عملك؟ وما الذي جاء بك؟"[2] حتى أن عيسى بن هشام لما سمع السؤال قال في نفسه: "حقاً إن الرجل لقريب العهد بسؤال الملكين، فهو يسأل على أسلوبهما"[3].
ثم يقول الباشا بعد ذلك آمراً: "فاذهب أيها الكاتب المنشئ فاطلب لي ثيابي وليأتوني بفرسي(دحمان)"[4].
وفي الخلاف بين الباشا والمكاري، كان الباشا لا يهاب الشرطي بل يأمره قائلاً: "خذ أيها القواس هذا السفيه وضعه في السجن حتى يأتيك أمري"[5].

---
[1] نفسه، ص78.
[2] نفسه، ص8.
[3] نفسه، ص8.
[4] نفسه، ص9.
[5] نفسه، ص18.

ثم ننظر إليه في آخر الرحلة، وقد صار كعامة الشعب المصري يخاف الذهاب إلى القسم. فيقول:"أنا لا أتوجه إلى القسم لا شاكيا ولا شاهداً ولا مراقباً ولا مستخبراً، فقد جربت ما يقع فيه، وكفاني ما علمته من ظواهره وخوافيه"[1].

وقد وضحت ملامح التغير في سلوك الباشا في قول عيسى بن هشام: "فسرني من الباشا مطاوعته إياي، وقبوله لنصيحتي"[2]، ويقول في موضع آخر:"وعكفت مع الباشا في عزلتنا، أذهب به كل مذهب، وانتقل به من مطلب إلى مطلب..."[3] والقارئ للمقامة / الرواية، يدرك أن هذا السلوك بعيد تماماً عن الشخصية الحقيقية للباشا.

ومن التكيف الاجتماعي أن الباشا صار يستمع إلى كل الناس، يستمع إلى الوعظ والنصيحة والشرح الطويل بلا كبرياء، وكأنه استسلم للواقع الجديد.

وفي الرحلة الثانية- إلى أوربا- نشعر بضعف المشاركة الفاعلة من قبل البطل الأول (عيسى بن هشام)، فما كانت رحلته الثانية إلا مشاهدات سياحية سطحية عابرة، ونشعر فيها أيضاً بانخفاض صوت الباشا وقلة كلماته، فالمتحدث أمامه يتحدث صفحات، وهو في حديثه لا يكمل السطر الواحد أو نصف السطر.

وفيها صار الباشا منقاداً مع صاحبه عيسى بن هشام للحكيم، فربما أشار بذلك إلى سيطرة الغرب وقوته في تلك المرحلة على العنصرين العربي والتركي. فبطلا المقامة رمزان للحضارة العربية والحضارة التركية أمام وطأة الاحتلال، فانتصارهما أو انهزامهما، انتصار أو هزيمة للحضارتين.

وفي حديث عيسى بن هشام إشارة صريحة تؤكد سيطرة العنصر الأجنبي على مقدرات البلاد، والاستمتاع بخيراتها دون المصريين، نرى هذا المعنى في قول الباشا عندما رأى حي الإسماعيلية وما فيه من خضرة وبهاء: "لله در المصريين، لقد ابتسم لهم الدهر، فأبدلهم من الشوك الزهر، وأسكنهم هذه القصور العالية، بعد تلك الأطلال البالية".

فقال له المحامي: "أيها الأمير لا تغبط المصري على نعمته، وتعال فابك معنا من نقمته؛ فليس له في هذه الجنة من دار، يقر له فيها من قرار. وكل ما تراه من هذا الجانب، فهو ملك للأجانب"[4].

فهو يكشف عن مدى تغلغل العنصر الأجنبي في بناء المجتمع المصري، بل وتمتعه بخيرات البلاد أكثر من أهل البلاد أنفسهم.

ولم تتوقف العلاقة عند هذا الحد، بل تطورت إلى درجة من الخضوع للأجنبي، فقد جاء على لسان المحامي الذي يطالب بحقه بعد إخراج الباشا من حبسه. قال: "... وما دفع بأعقابكم إلى هذا اللِيان والتسليم إلا ما ورثوه عنكم من الاحترام لشأن الأجنبي، والاحتقار لجانب المصري، وأنكم لم تكتفوا بأن تكونوا أرباباً للمصريين حتى شاركتم معكم الأجنبي في تلك الربوبية، فغلبكم عليها وأشركم مع المصريين في العبودية وتشابهت الموالي بالعبيد"[5].

وقد ظهرت آثار الغرب قبل الرحلة الثانية، فعدم معرفة الباشا بـ(المحاكم – النيابة – الجرائد – القانون – الألقاب – بعض أسماء الأشياء) كان نتيجة طبيعية للاتصال بالغرب كما أجابه عيسى بن هشام: "هي أثر من آثار المدنية الغربية انتقل إلينا منها فيما انتقل"[6]، وكأنها أمور تمهد للسيطرة، تمهد للرحلة الثانية.

---

[1] نفسه، ص287.
[2] نفسه، ص44.
[3] نفسه، ص136.
[4] نفسه، ص51.
[5] نفسه، ص59.
[6] نفسه، ص40.

هذا ما أراده المؤلف، ولكنّ هناك غَرْساً ثقافياً اجتماعياً شاملاً، ليس في وعي الكاتب، ولكنه يعمل عمل مؤلف آخر يصاحب المؤلف المُعلَن، ويشترك بغرس أنساقه من تحت نظره، فالمويلحي كان يكتب بسياق مُضمر في نفسه، ترسب وخاطب العمق في نفوس القراء؛ ذلك مما جعل لعمله جماهيرية عريضة كما أشرت من قبل، هذا النسق الاجتماعي العام لا يتعارض مع شخص المويلحي الثائر على كل غريب، كما "لا تملك الثقافة الشخصية الذاتية الواعية القدرة على إلغاء مفعول النسق؛ لأنه مضمر من جهة، ولأنه متمكن ومنغرس منذ القديم"[1].

ربما عضد من فعل النسق وتأثيره ما شهده عصر المؤلف من تعدد في النفوذ الأجنبي على البلاد، فقد شهدت البلاد نوعين من أنواع النفوذ الأجنبي، هما: النفوذ التركي، والنفوذ الأوربي.

أما النفوذ التركي، فيتمثل في الطبقة الحاكمة من لدن محمد علي إلى عهد إسماعيل فتوفيق فعباس حلمي الثاني...

وأما النفوذ الأوربي، فيتمثل في الاحتلال البريطاني الذي منيت به البلاد فور انهزام العرابيين للإنجليز، كما هو معروف في التاريخ.

فمهما كان الباشا فهو يمثل النفوذ التركي، صوره النسق متعالياً منعزلاً عن أهل البلاد، لا يعرف حياتهم، ولا يشعر بآلامهم، ولا يشاركهم آمالهم، وربما رفض الخير إن أراد بابهم، فالباشا لا يرضيه أن تكون النيابة في أبناء الفلاحين المصريين، فيقول: "... والذي يفوق ذلك عجباً ويزيد العقل خبالاً أن يحكم الناس فلاح، وينوب عن الأمة حرّاث."[2]

بل يعد ذلك من أكبر الشدائد التي مر بها في حياته الثانية، ولن يستطيع الصبر عليها فيقول: "ويشهد الله أنني خرجت من شدة إلى شدة، وانتهيت من خطب إلى خطب؛ فسلمت وصبرت، ولكن لا صبر لي على هذه الخارقة"[3]. فهذه العبارة تشي بنظرة الباشا إلى المصريين.

ويحتقرهم أحياناً. يقول الباشا لعيسى بن هشام في حوارهما مع المكاري:"لا تعط هذا الكلب النابح درهماً واحداً وقد أمرتك أن تضربه، فإن لم تفعل فأنا أتنزل إلى ضربه وتأديبه، والفلاح لا يصلح جِلدُه إلا بِجَلْده"[4]. هذه ليست جملة عابرة ناتجة عن غضب الخلاف مع المكاري، لكنها تعبر عن مبدأ، وغرس ثقافة، وفعل نظام طبقي عاشت فيه البلاد، و"الثقافة في مجتمع النظام الطبقي تطبع كل شخص بخلق خاص تبع طبقته"[5]، والباشا يؤكد على رأيه وثقافته في أكثر من موضع، فعندما علم أنه في غير زمانه قال: "فاللهم عفوك وصفحك، هل قامت القيامة وحان الحشر؛ فانطوت المراتب، وانحلت الرياسات، وتساوى العزيز بالذليل والكبير بالصغير والعظيم بالحقير والعبد بالمولى، ولم يبق لقرشي على حبشي فضل، ولا لأمير منا على مصري أمر، ذلك مالا يكون ولا تحتمله الظنون"[6].

ومن كلامه في هذه المرحلة: "ومن أعجب ما سمعت أن المصري يتعدى على الجندي"[7]، فمقام الجندي، وهو في الغالب تركي، أعلى من مقام المصري.

وإلى جانب احتقاره لأهل البلاد، فهو يتمتع بخيراتها، ويحيا حياة غير حياتهم، ففي الوقت الذي لا يجد الناس فيه أقواتهم، نراه يتعالى على ركوب الحمار-ركوبة عامة أهل مصر- فيقول

---

[1] النقد الثقافي، ص82.
[2] حديث عيسى بن هشام، ص22.
[3] نفسه، ص22.
[4] نفسه، ص13.
[5] الثقافة والشخصية -حوار لا ينتهي، سامية حسن الساعاتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة العلوم الاجتماعية، مكتبة الأسرة، سنة 2009م، ص 227.
[6] حديث عيسى بن هشام، ص20.
[7] نفسه، ص35.

للمكاري: "كيف تدعوني أيها الشقي إلى ركوب الحمار وما رغبت فيه قط ...وكيف لمثلي أن يركب الحمار؟!"[1]

ويساهم الماضي في صناعة الحاضر، فنرى أبناء هذه الطبقة من الأمراء، وهم يتمتعون أيضاً بما تركه لهم آباؤهم (الباشاوات) من أموال، المصري أحق بالقليل منها، وقد ظهر ذلك على لسان المحامي في الحديث، عندما كان يطالب الباشا بحقه في القضية، فمما قاله المحامي:"إنا لنعلم، يا معشر الأمراء والحكام، أنكم قضيتم الأعمار في جمع الحطام، واتخذتم الحكم والسلطان تجارة من التجارات وبضاعة من البضاعات ترجون منها الغنى والثروة،... حتى إذ انقضى العمر وحل الأجل تركتم ما خلفتموه لغُلْمة من أولادكم وصبايا من جواريكم نشأوا بينكم على الحرمان، ولم تُثقّفوهم بالتعليم، ولم تتركوهم للزمن يؤدبهم، وللأيام والليالي تهذبهم، ...وياليت أولادكم وأحفادكم خففوا عليكم من الإثم في جمعها من دماء المصريين بانفاقها بينهم، وتبذيرها فيهم، فيكون ذلك منهم كرد بعض الحق إلى أهله، ولكن البلاء كل البلاء أنها ذهبت جميعاً إلى أيدي الأجانب والغرباء، وكأن الدهر سلط المماليك على المصريين ينهبون أموالهم، ويسلبون أقواتهم، ثم سلطكم الله عليهم لسلب ما جمعوه، ثم سلط عليكم أعقابكم فسلموا مجامع ذلك للأجانب يتمتعون به على أعين المصريين، والمصريون أولى بالقليل منه"[2].

فهذا القول خرج من المؤلف ليعبر به عن حال الغضب الذي أصاب المحامي نتيجة تأخر أجرته لدى الباشا بعد كسب القضية، فهو يعبر به عن ثقافة المجتمع تجاه هؤلاء الأمراء من أحفاد الباشاوات، وهم لا يجدون فرقاً بيّناً بين الحكام الأتراك والحكام المماليك من قبل، فكلهم غرباء تسلطوا على قوت المصريين. يسلم بعضهم بعضاً، المماليك يأخذون ما في أيدي المصريين، ويتركونهم للحاجة، ونتيجة لذلك الظلم يسلط الله تعالى الأتراك ليأخذوا ما سلبه المماليك، ثم سلط الله أولاد هذه الطبقة الأخيرة وأحفادهم، فأخذوا كل ما جمعه أسلافهم ليضعوه في يد أجنبي آخر جاء من أوربا.

وتتوالى الأحداث في صورة أقنعت المتلقي بصدقها، فبعض أجزئها انتزع من واقع الحياة، فإلى جانب واقعية حالهم، فأسماء الأماكن، وأسماء بعض الأشخاص[3]، أوهم المتلقي بواقعية حال الباشا وأمثاله. ولكنّ الباشا لم يعد إلى قبره مرة أخرى، ولم ينهِ المؤلف قصته، في إشارة نسقية إلى دوام الحال، واستمرارية القصة.

---

[1] نفسه، ص12.

[2] نفسه، ص57: 59.

[3] يؤكد تلك الواقعية عدم ذكره أسماء الأمراء الثلاثة من رفقة الباشا، الذين طال بهم العمر حتى عصر المؤلف، فوصفهم ولم يذكر أسماءهم. انظر: نفسه، ص71: 80.

الفلاح المصري:

مَنْ الفلاح في حديث عيسى بن هشام؟

الفلاح في حديث عيسى بن هشام، هو كل فقير من المصريين، فمما قاله الباشا في موقف الخلاف مع المكاري:"إني لأعجب من صبرك على هذا الفلاح السفيه"[1].

والفلاح هو الإنسان الريفي البسيط، الذي يعمل في زراعة الأرض. وجدنا ذلك في حوار دار بين كهل وشاب، في عرس أحد أبناء أعيان الصعيد في القاهرة. فمما جاء على لسان الشاب: "أظنك كنت تريد أن يُقام الاحتفال بزواج هذا الشاب المتمدين بين الأحواض والمستنقعات في قرية أبيه، وبين الأوباش والهمج من فلاحيه ومزارعيه..."[2].

والفلاح، هو العمدة (خلاصة أعيان الريف المصري)، وهو أكثرهم ظهوراً في ثنايا الحديث.

والفلاح، كل مصري من أبناء هذا البلد، نرى هذا المعنى، في سؤال الباشا عن النيابة. قال الباشا:"ومن هذا الأمير العظيم الذي التفت الأمة عليه لينوب عنها؟" فأجابه عيسى بن هشام قائلاً: "ليس هذا الذي تراه بأمير ولا بعظيم من عظماء الأمة، وإنما هو أحد أبناء الفلاحين أرسله أبوه إلى المدارس فنال الشهادة، فاستحق النيابة؛ فتولى في الأمة ولاية الدماء والأعراض"[3].

إذاً الفلاح في حديث عيسى بن هشام هو كل مصري، بداية من النائب الذي يمثل العدالة والسلطة، حتى المكاري الذي يحتال من أجل الكسب.

الفلاح في عصر الباشا:

وصف أحد المعاصرين[4] للمويلحي حال الفلاح المصري في تلك الحقبة فقال: "إن حياته في الجملة بقيت تدعو إلى الألم والإشفاق، ... حرمانه حق التملك، واستهدافه لفداحة الضرائب، ومساوئ الاحتكار ومظالم الحكام جعله في حالة تعسة، فزيادة الحاصلات الزراعية وإقامة أعمال العمران لم يقترن بها ارتقاء حالة الفلاح الاجتماعية، وقد وصف (المسيو مانجان) حالته في ذلك العهد بقوله: إذا صح أنه لا يوجد في العالم بلاد أغنى من مصر من الوجهة الزراعية، فليس ثمة بلاد أخرى أتعس منها سكاناً، وإذا بقى فيها العدد الذي بها من السكان (سنة 1832) فالفضل في ذلك إنما يرجع إلى خصوبة أرضها وقناعة فلاحها"[5].

وفي تاريخ الجبرتي وصف للظلم الذي كان يقع على الفلاح المصري. منه: "امتلأت البلاد الشامية والرومية من فلاحي قرى مصر الذين جلوا عنها وخرجوا منها، وتغربوا عن أوطانهم من عظيم هول الجور"[6].

لكن منهم من له أولاد لا يستطيع تركهم فاضطر إلى البقاء، فكيف كان حالهم؟ :"قد كانوا مع الملتزمين أذل من العبد المُشترى، فربما أن العبد يهرب من سيده إذا كلفه فوق طاقته أو أهانه بالضرب، وأما الفلاح فلا يمكنه"[7].

وتعبيرات الباشا في حديث عيسى بن هشام تؤكد على ذلك، ففي نزاعهما مع المكاري يقول الباشا لعيسى بن هشام: "...فهلمَّ فاضربه بالنيابة عني حتى تريحه من عيشه، وتريحنا منه"[8].

---

[1] نفسه، ص12.

[2] نفسه، ص183.

[3] نفسه، ص22.

[4] عبد الرحمن الرافعي، ولد سنة 1889م ، وتوفي سنة 1966م.

[5] عصر محمد علي، ص550.

[6] تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي (ت 1237هـ)، دار الجيل، بيروت – لبنان، (د.ت)، ج3 ،ص289.

[7] نفسه، ج3 ، ص455.

[8] حديث عيسى بن هشام، ص12.

والفلاح ضعيف مُهان لا يجد له ناصراً إلا اللجوء إلى المشايخ والأولياء، فمما جاء على لسان الباشا: "ألم أقل لك إن الفلاح لا يصلحه إلا الضرب! ألم تعلم أن غاية ما ينتهي إليه أمره في رفع الألم عنه أن يعلو صياحه استغاثة بالمشايخ والأولياء"[1]. ما أشقها من عبارة على أنفسنا، فكيف بفعلها في أبدان الفلاحين ونفوسهم، فإن كانت العبارة تشير إلى ثقافة اجتماعية واعتقاد في الأضرحة، فإنها أكثر تعبيراً عن الضعف والهوان، وانعدام المُعين، وكأني بالباشا يقول: افعل فيه ما شئت فلن يجد له ناصراً.

والباشا يقبل أي شيء إلا أن يكون هذا العظيم (النائب)، من أبناء الفلاحين، وإن كان فهو من الأمور الخارقة للعادة، التي لم يتعودها، ولا يستطيع الصبر عليها. فيقول: "لا صبر لي على هذه الخارقة"[2].

وفي عبارة نسقية، يقول الباشا: "الفلاح لا يصلح جِلْدُه إلا بِجَلْدِه"[3] رددها المؤلف على لسان الباشا أكثر من مرة في الحديث، وربما ترددت على ألسنة المصريين في عصر المويلحي، فالنسق يستخدم أقنعة الجمالية اللغوية ليمر آمناً مطمئناً، فعلى الرغم من عدم الإيمان بمعنى العبارة، ومحاولة إثبات عكسها، إلا أنهم يرددونها، وربما يطربون لها وجدانياً[4].

وفي إشارة إلى عصره، عمل المويلحي على إظهار أنماط من الفلاحين المهمشين في المجتمع المصري[5]، فبدأ حديثه بإثارة صراع بين طبقتين اجتماعيتين متباينتين (صراع المركزي والهامشي/الباشا والمكاري)، أراد بهذا الصراع إبراز العديد من المفاهيم الاجتماعية الجديدة، أو أراد إظهار الفارق بين العصرين: عصر الباشا، كما رأينا صورته، وعصر المؤلف، الذي فيه – كما يرى المويلحي- استرد الفلاح بعض مكانته.

فصورة العصرين ظاهرة في قول الباشا متعجباً:"... وأنكم أصبحتم في زمان غير ذلك الزمان، وفي حال من الفوضى يصح فيها قول ذلك المكاري: إنه هو والباشا في المنزلة سواء"[6]، فهو يرى عصره – مقارنة بزمن الباشا-عصر حرية ومساواة، وقد بث هذا المعنى في كثير من العبارات والأحداث، فمما جاء على لسان المكاري: "لا تفاوت بين المكاري وبين الأمير"[7]، فهما في الحق سواء.

ولما رفض الباشا مبدأ المساواة مع المكاري، أصر الكاتب على تحققه في عصره، فخلق مشادة غريبة بين الباشا، و(عسكري المراسلة)، وعلى الرغم من فارق الرتبة والقدر بين أعلى رتبة، وأقل منزلة بين العسكر-كما يرى الباشا- إلا أن المؤلف انتصر لمبدأ المساواة والحرية الذي أراد أن يؤكده للباشا.

وفي محاكمة الباشا ثم وضعه في السجن، باب من أبواب المساواة- كما يرى الكاتب أو كما أراد- وقد رفض الباشا هذا الحال وتعجب منه، فهو لم يعرف ذلك ولم يتعوده، فمما جاء على لسانه: "كيف تجوز محاكمة الأمراء وحبس الباشاوات...لقد عشت دهري ما علمت أن السجن يكون عقاب الكبراء الأمراء، وإنما هو يجري عندنا في عقاب الغوغاء من الناس، والسفلة من العامة، وللأمراء الامتياز على كل حال"[8].

---

[1] نفسه، ص14.
[2] نفسه، ص22.
[3] نفسه، ص13 – 14.
[4] انظر: النقد الثقافي، ص79.
[5] حاول إظهار المهمشين ومساواتهم بالباشا في بداية الحديث، ولكنه ركن إلى عدم المساواة مسايرة للنسق في بقيته. بقيته.
[6] حديث عيسى بن هشام، ص20.
[7] نفسه، ص13.
[8] نفسه، ص48.

وفي هذه المرحلة نرى الفلاح نائباً عاماً، يهب له الباشا واقفاً عند دخوله – التزاماً بتقاليد المحكمة– بل يدخل الفلاح في منافسة مع هذه الطبقة من الباشاوات، ففي حديث عيسى بن هشام: شكا الباشا إلى نائب لجنة المراقبة من نائب المحكمة الذي عيَّره بشرف رتبته، فكان رد نائب اللجنة: "لا بأس عليك من كلام النائب في هذا الباب؛ فإنه جرى بيننا مجرى العادة في هذا العصر"[1]، فهذا سلوك اجتماعي عام في عصر المؤلف، يجرى مجرى العادة.

ويحاول المؤلف التأكيد على الفكرة بالإشارة إلى محاكمة أحد أحفاد محمد علي، وفي هذا الموضع يذكرها (المساواة) المؤلف صراحة على لسان عيسى بن هشام فيقول: "انظر أيها الباشا كيف وصلت بنا الحال في المساواة، وقد علمت ما أصاب (البرنس) أحمد سيف الدين من حكم المحاكم عليه"[2]. وفي مقارنة خفية بين العصرين يُنطق الباشا فيجعله يقول: "كيف لا تخر الجبال الشم، ... وكيف لا تنشق القبور، ويُنفخ في الصور، وقد انحط المقام، وسفل القدر، وحقت كلمة ربك على مصر(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا)*"[3].

ولكن على الرغم من محاولة المؤلف رسم هذه الصورة من الحرية وبعض المكانة للفلاح المصري في عصره، إلا أنه لم يتمكن من رد النسق، فما يعرضه المؤلف من عدالة ومساواة في مجتمعه، لا يختلف كثيراً عن العدالة التي كانت تُرضي الباشا، فإن كان المؤلف والمجتمع أنهى طاغية، فقد اصطنع لنفسه طاغية آخر، ورضي به، انظر معي إلى صورة رجل البوليس في السوق، في أول صفحات الحديث: "...وهو على مقربة منا لا يكترث بنداء المستغيث..فإنه منشغل ببائع الفاكهة... واقفاً وفي يده منديل أحمر قد امتلأ بأصناف متنوعة مما جمعه في صباحه من باعة الأسواق في محافظته على النظام"[4]، وكأنما الظالم يزيح ظالماً ويحل محله.

ولأنه نسق تشكل عبر مراحل تاريخية ممتدة، تضافرت معه عوامل سياسية عرفتها البلاد، فقبل الأتراك حَكَمَ المماليك، وقبل المماليك حَكَمَ الأيوبيون، ومن قبلهم حَكَمَ الفاطميون...؛ فقد تكونت لدى الشخصية المصرية ثقافة، الإجلال لهؤلاء الغرباء، والإقلال من قدر الذات، والتسليم بالقيمة الأعلى لهؤلاء الباشاوات والأمراء، حتى ساد بينهم اعتقاد راسخ أن الأمور العظيمة لا يتولاها مصري[5].

وفي اختياره الباشا التركي نموذجاً ناقداً للحياة المعاصرة وما طرأ عليها من تغير -كان أكثره تغيراً للأسوأ- أكبر دليل على رفعة هذه الشخصية النسقية.

ففي أول وصف للباشا، وهو لمَّا يعرفه بعد يقول: "فرأيت قبراً انشق من تلك القبور، وقد خرج منه رجل طويل القامة، عظيم الهامة، عليه بهاء المهابة والجلالة، ورواء الشرف والنبالة"[6].

وفي الطرف الآخر، عندما أتى بنموذج أعلى للفلاحين (العمدة)، جعله في صورة نسقية ساخرة، يجاري بها ثقافة سادت في عصره، تشي بالبون الشاسع بينه وبين ما يحاول مجاراته من المدنية والرقي.

وهؤلاء الفلاحون مهما علا قدرهم، وزادت أموالهم وأطيانهم، إلا أنهم يشعرون بالنقص والدونية أمام هذه الطبقة؛ فيتمسحون بها، اعترافاً ضمنياً منهم بمكانتها في نفوسهم، فالعمدة يحتفظ بفم السيجارة، ويتألم عندما ينكسر، لماذا؟ لأنه تذكار من حضرة مأمور المركز[7].

---

[1] نفسه، ص47.
[2] نفسه، ص42.
* الحجر (74).
[3] نفسه، ص43.
[4] نفسه، ص14.
[5] انظر: عصر إسماعيل، ج1، ص217.
[6] حديث عيسى بن هشام، ص8.
[7] انظر: نفسه، ص221.

والفلاح صاحب العرس يدعو من يعرف ومن لا يعرف، من كبراء القوم وعظمائهم، حتى الأجانب دعاهم؛ للتفاخر والتباهي أمام أهله ومعارفه؛ فأنفق عليه مالاً كثيراً، وقد وصف المويلحي هذا العرس في أكثر من عشرين صفحة (ص166: 189) وقف فيها على ما دار فيه من مفاسد ينأى عن مثلها كل وقور، فمما جاء فيه: "فلم أجد في الحاضرين بلا استثناء من هو ملتفت إلى سماع الغناء، بل رأيتهم يوجهون النظر إلى السماء، ويكثرون من الإشارة والإيماء كمن يتضرع بالدعاء، ليكشف المحنة والبلاء، فرفعت مثلهم نحو السماء بصري، فدُهيتُ من حيث أدري ولا أدري. إذ رأيت نوافذ الدار، مهتوكة الأستار، وفي كل نافذة هيفاء مسفرة النقاب..."[1].

ثم يقول:" والمغني يستقبل وجوههن في هذه الأثناء، بوجه ليس فيه أدنى حياء، فيغنيهن من الأصوات والألحان ما يثير من الغرام ويهيج من الأشجان، و الخصيان يصعدون إلى الحرم بأوراق وينزلون منه بأوراق...وما زال الحال تتزايد قِحَةً ووقاحة، وتتضاعف هتكاً وفضاحة..."[2].

وبعد وصف العرس وما فيه من مفاسد بعيدة كل البعد عن الشخصية المصرية انتقل بنا المؤلف إلى حديث العمدة، وأظنه ترتيباً مقصوداً، وكأنه يقول: إن صاحب العرس واحد من أبناء هؤلاء العمد، ثم يُفصِّل الحديث عن العمدة، الشخصية القادمة من الصعيد من أجل التمتع بالنساء، ثم يصوره في مواقف ساخرة، تشعرنا بدونيته، وهو خلاصة المجتمع في الريف المصري.

وصورة العمدة في حضرة البرنس في الحان تشي بما يكنه العمدة في نفسه من إكبار لهؤلاء الناس، فالعمدة لا يصدق فكرة لقاء البرنس بالجملة فيقول: "لا تهزأ بي ولا تمزح. فأين نحن من البرنسات؟!..."[3] وفي حضرة البرنس، لا يستطيع الجلوس، ولا الشرب الذي جاء إلى الحان من من أجله[4].

ولكن هناك جانب آخر في الثقافة المصرية ظهر في بناء الحديث، وهو ما يُلاحظ من تطويل مفرط في سرد حكايات العمدة، فقد استأثر شخص العمدة على جانب كبير من الحديث، فقد جعله المؤلف في عناوين مستقلة هي: (العمدة في الحديقة، ص190 – العمدة في المجمع، ص199 – العمدة في المطعم، ص208 – العمدة في الحان، ص 217 – العمدة في المرقص، ص227 – العمدة في الرهن، ص251 – العمدة في الأهرام، ص262 – العمدة في الملهى، ص 278: 287)، فقد بدأ الحديث عن العمدة، ص190 وأنهاه، ص 287 فهو قسم كبير جداً من الكتاب.

فالعمدة (الفلاح) هو صاحب الحديث، هو صاحب الأرض، نعم فهو المصري، المالك الحقيقي لخيرات البلاد، ولكن لا يصل إليه من خيراتها شيء، فبدت ملامح الحرمان في النسق، ملازمة لملامح الحق الذي هو في أيدي بعض المصريين بالفعل.

بدت هذه الملامح في أول ظهور للعمدة، فكان أول ما نطق به وهم في الحديقة. قال: "وأين الآن ما دخلنا الحديقة من أجله فقد طال بنا الجلوس..."[5].

فجلوسه، وتنقله الدائم لم يشفعا له لينال مراده، ولم يصل إلى ما يصبو إليه، ليس ذلك لفضيلة في نفس المؤلف، أو لطهر اتسم به العصر، ولكن النسق يريد أن يؤكد حرمانه من بلوغ مراده، حتى وإن كان له أموال ينفقها، ومحصول يرهنه، فالفلاح الفقير ليس عنده ما ينفقه، فلن يصل إلى مبتغاه، وهذا العمدة الغني مهما أنفق فلن يصل إلى ما يصبو إليه أيضاً. فهما في الحرمان سواء.

---

[1] نفسه، ص187.
[2] نفسه، ص188.
[3] نفسه، ص219.
[4] انظر: نفسه، ص222: 225.
[5] نفسه، ص196.

يؤكد ذلك ما حدث في العرس الذي أقامه أحد أبناء الصعيد المترفين في العاصمة، فبعد كل ما أنفق فيه من مال، وكل من دعاهم من أصحاب الجاه والسلطان، إلا أن عرسه قد انتهى بشجار بين الشباب، دفعهم جميعاً إلى قسم الشرطة "فصارت الأفراح أتراحاً، وانقلب الغناء نواحاً"[1]. "في ثقافة النسق لا مكان للمعارضة أو مخالفة الرأي، والآخر دائماً قيمة ملغية"[2].

لكن هل قصد المويلحي هذه المعاني؟ أظنه لم يهدف من هذه الصورة الساخرة إلا الضحك، فالضحك من العناصر التي يمكن أن ينهض عليها التأويل، فيمكن تأويلها إلى صورة رمزية للحاكم المصري- في عصره– وهو يقلِّد الأجانب ويتمسح بهم.

وهذا تأويل أحد الباحثين قال: "صورة العمدة في حديث عيسى بن هشام أقرب ما تكون – على المستوى الرمزي – إلى صورة الحاكم في تلك الفترة من الزمن، وهو حاكم أناني مُبذر مُقلِّد في التافه من الأمور؛ مما جعله ينقاد إلى كل ما هو أجنبي واضعاً أعنة الأمور في يديه...وبدت طوابع هذا الوضع في سيطرة الخليع على العمدة. وإذا كان العمدة يمثل فناء القرية في المدينة فإن الحاكم – من ثم – يمثل فناء مصر في أوربا استناداً للمقولة التي كان يروجها(مصر قطعة من أوربا)"[3].

أو أنه أراد إظهار المفارقة، يؤكد ذلك انتقاله من موضوع (العمدة في الملهى) مباشرة إلى موضوع (المدنية الغربية)، ثم انتقاله إلى الرحلة الثانية إلى أوربا.

أو أنه أراد الإشارة إلى أزمة الإنسان المصري، وهو يعاني من وطأة الاحتلال الأجنبي لبلاده ومقدرات حياته، وهو في غفلة، وغيره يستغل نقاط ضعفه.

---

[1] نفسه، ص 188.

[2] النقد الثقافي، ص196.

[3] نقد المجتمع، ص54.

الخاتمة:

- نتيجة لتغيرات في بناء المجتمع المصري؛ نلمس معاناة اجتماعية، وصراعاً نفسياً لدى شخصيات حديث عيسى بن هشام للمويلحي؛ فإشكالية النموذج الحضاري ما بين التراث العربي/ عيسى بن هشام، والنموذج التركي الحاكم/ الباشا، والنموذج الأوربي السائد، ومحاولة التكيف الاجتماعي مع الواقع الغريب على الشخصيات، جعل الشخصية الروائية مصابة بحيرة وتمزق.

- حاول المويلحي التأكيد على بعض المبادئ الاجتماعية السائدة في عصره مثل: العدل والمساواة والحرية ...إلخ؛ فقام ببعث بعض الشخصيات التاريخية المعروفة؛ لتسانده وتكون شاهدة على عصره وتحدد موقفها مما تراه، واستعان ببعض الخصائص الفنية للغة؛ ليمنح الأفكار الجزئية أبعاداً معينة.

- أن هناك غَرْساً ثقافياً اجتماعياً شاملاً، ليس في وعي المؤلف، ولكنه يعمل عمل مؤلف آخر مصاحب له، يشارك بغرس أنساقه من تحت نظره، من خلال نظام سحري من الإشارات، تمكنت من الوصول إلى العمق في نفوس القراء؛ فكان لحديث عيسى بن هشام جماهيرية عريضة، شهدت لها دور النشر في عصره وبعد عصره.

- أن هذا الباب من أبواب النقد الأدبي (نقد الأنساق / النقد الثقافي) يهيئ مدخلاً واسعاً للولوج في العالم الداخلي للأديب، والبحث في المسكوت عنه داخل النص.

***

مصادر البحث ومراجعه:

- الأدب والمجتمع المعاصر في مصر، سمير سعيد حجازي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.
- الأعلام - قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الزركلي - خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي(ت 1396هـ)، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، الطبعة الخامسة عشرة، سنة 2002 م.
- تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي (ت 1237هـ)، دار الجيل، بيروت – لبنان، (د.ت).
- الثقافة والشخصية -حوار لا ينتهي، سامية حسن الساعاتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة العلوم الاجتماعية، مكتبة الأسرة، سنة 2009م.
- حديث عيسى بن هشام، أو فترة من الزمن، محمد المويلحي (ت 1348هـ)، دارف المحدودة، لندن، الطبعة الخامسة، (د.ت).
- السياق الأدبي دراسة نقدية تطبيقية، محمود محمد عيسى، طبعة خاصة، سنة 2004م.
- عصر إسماعيل، (الجزء الأول)، عبد الرحمن الرافعي، دار المعارف، مصر، الطبعة الرابعة، سنة 1987م.
- عصر محمد علي، عبد الرحمن الرافعي، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة، سنة 1989م.
- المويلحي الصغير- حياته وأدبه، عبد اللاه عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، سنة 1985م.
- النقد الثقافي- قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان/ والمملكة المغربية – الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، سنة 2005م.
- نقد المجتمع في حديث عيسى بن هشام، أحمد إبراهيم الهواري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، سنة 1993م.
- نقد ثقافي أم نقد أدبي، عبد الله الغذامي، وعبد النبي اصطيف، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، سنة 2004م.